أبلغهم إياه كقوله تعالى (ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم) وكقوله تعالى (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق) الآية أى أنا مبلغ ومنذر (فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين) أى لى أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم وخلصوا من عهدتهم وحساب أممهم على الله تعالى كقوله تعالى (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وقال (إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل) (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها) أى لله الحمد الذى لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه، والانذار اليه، ولهذا قال تعالى (سيريكم آياته فتعرفونها) كما قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) وقوله تعالى (وما ربك بغافل عما تعملون) أى بل هو شهيد على كل شىء. قال ابن أبى حاتم ذكر عن أبى عمر الحوضى حفص بن عمر حدثنا أبو أمية بن يعلى الثقفى حدثنا سعيد بن أبى سعيد سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ «يا أيها الناس لا يغترن أحدكم بالله فان الله لو كان غافلا شيئاً لأغفل البعوضة والخردلة والذرة» وقال أيضا حدثنا محمد بن يحيى حدثنا نصر ابن على قال أبى أخبرنى عن خالد بن قيس عن مطر عن عمر بن عبد العزيز قال: فلو كان الله مغفلا شيئاً لأغفل ما تعفى الرياح من أثر قدمى ابن آدم، وقد ذكر عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه كان ينشد هذين البيتين إماله وإما لغيره

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل * خلوت ولكن قل على رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة * ولا أن ما يخفى عليه يغيب

آخر تفسير سورة النمل ولله الحمد والمنة

﴿تفسير سورة القصص وهى مكية﴾

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا يحيى بن آدم حدثنا وكيع عن أبيه عن أبى إسحق عن معديكرب قال أتينا عبدالله فسألناه أن يقرأ علينا طسم المائتين فقال ما هى معى ولكن عليكم بمن أخذها من رسول الله ﷺ خباب بن الأرت قال: فأتينا خباب بن الارت فقرأها علينا رضى الله عنه.

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿طسم * تلك ءايات الكتاب المبين * نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين * ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة، وقوله (تلك) أى هذه (آيات الكتاب المبين) أى الواضح الجلى الكاشف عن حقائق الأمور وعلم ما قد كان وما هو كائن. وقوله (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق) الآية كما قال تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص) أى نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك تشاهد وكأنك حاضر ثم قال تعالى (إن فرعون علا فى الأرض) أى تكبر وتجبر وطغى (وجعل أهلها شيعاً) أى أصنافا قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته وقوله تعالى (يستضعف طائفة منهم) يعنى بنى إسرائيل وكانوا فى ذلك الوقت خيار أهل زمانهم، هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم فى أخس الأعمال، ويكدهم ليلا ونهارا فى أشغاله وأشغال رعيته ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيى نساءهم إهانة لهم واحتقارا وخوفا من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه. وكانت القبط قد تلقوا هذا من بنى إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل عليه السلام حين ورد الديار المصرية وجرى له مع جبارها

ماجرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية فصانها الله منه ومنعه منها بقدرته وسلطانه فبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون فاحترز فرعون من ذلك وأمر بقتل ذكور بنى إسرائيل ولن ينفع حذر من قدر لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ولكل أجل كتاب ولهذا قال تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض - إلى قوله - يحذرون) وقد فعل تعالى ذلك بهم كما قال تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون - إلى قوله - يعرشون) وقال تعالى (كذلك وأورثناها بنى إسرائيل) أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى فما نفعه ذلك مع قدرة الملك العظيم الذى لا يخالف أمره القدرى ولا يغلب بل نفذ حكمه وجرى قلمه فى القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه بل يكون هذا الغلام الذى احترزت من وجوده وقتلت بسببه ألوفا من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفى دارك وغذاؤه من طعامك وأنت تربيه وتدلله وتتفداه وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه لتعلم أن رب السموات العلا هو القاهر الغالب العظيم القوى العزيز الشديد المحال الذى ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بنى إسرائيل خافت القبط أن يفنى بنى إسرائيل فيلون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة فقالوا لفرعون إنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموت شيوخهم وغلمانهم يقتلون ، ونساؤهم لا يمكن أن تقمن بما تقوم به رجالهم من الأعمال فيخلص إلينا ذلك فأمر بقتل الولدان عاما وتركهم عاما ، فولد هرون عليه السلام فى السنة التى يتركون فيها الولدان ، وولد موسى فى السنة التى يقتلون فيها الولدان ، وكان لفرعون ناس موكلون بذلك وقوابل يدرن على النساء فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها ، فاذا كان وقت ولادتها لا يقبلها إلا نساء القبط فان ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن ، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرهفة فقتلوه ومضوا قبحهم الله تعالى . فلما حملت أم موسى به عليه السلام لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ولم تفطن لها الدايات ، ولكن لما وضعته ذكراً ضاقت به ذرعاً وخافت عليه خوفاً شديداً وأحبته حباً زائداً وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه فالسعيد من أحبه طبعاً وشرعاً ، قال الله تعالى (وألقيت عليك محبة منى) فلما ضاقت به ذرعاً ألهمت فى سرها وألقى فى خلدها ونفث فى روعها كما قال تعالى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا ردوه إليك وجاعلوه من المرسلين) وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل فاتخذت تابوتاً ومهدت فيه مهداً وجعلت ترضع ولدها فاذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعته فى ذلك التابوت وسيرته فى البحر وربطته بحبل عندها فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه فذهبت فوضعته فى ذلك التابوت وأرسلته فى البحر وذهلت أن تربطه فذهب مع الماء واحتمله حتى مر به على دار فرعون فالتقطه الجوارى فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون ولا يدرين مافيه وخشين أن يفتتن عليها فى فتحه دونها ، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه فأوقع الله محبته فى قلبها حين نظرت اليه وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها ولهذا قال (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزناً) الآية قال محمد بن إسحق وغيره اللام هنا لام العاقبة لا لام التعليل لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضى

ما قالوه ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فانه تبقى اللام للتعليل لأن معناه أن الله تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعله عدوا لهم وحزنا فيكون أبلغ فى إبطال حذرهم منه ولهذا قال تعالى (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) وقد روى عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه كتب كتابا إلى قوم من القدرية فى تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة فى علمه السابق وموسى فى علم الله السابق لفرعون عدو وحزن قال الله تعالى (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وقلتم أنتم لو شاء فرعون أن يكون لموسى وليا ونا صرا والله تعالى يقول (ليكون لهم عدوا وحزنا) وقوله تعالى (وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك) الآية يعنى أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفا من أن يكون من بنى إسرائيل فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه وتذب دونه وتحببه إلى فرعون فقالت (قرة عين لى ولك) فقال فرعون أما لك فنعم وأما لى فلا ، فكان كذلك وهداها الله بسببه وأهلكه الله على يديه وقد تقدم فى حديث الفتون فى سورة طه هذه القصة بطولها من رواية ابن عباس مرفوعا عند النسائى وغيره . وقوله (عسى أن ينفعنا) وقد حصل لها ذلك وهداها الله به وأسكنها الجنة بسببه . وقوله (أو نتخذه ولدا) أى أرادت أن تتخذه ولدا وتتبناه وذلك أنه لم يكن لها ولد منه وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) أى لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ * فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها فى البحر أنه أصبح فارغا أى من كل شىء من أمور الدنيا إلا من موسى قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والضحاك والحسن البصرى وقتادة وغيرهم (إن كادت لتبدى به) أى إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد وتخبر بحالها لولا أن الله ثبتها وصبرها قال الله تعالى (لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين * وقالت لأخته قصيه) أى أمرت ابنتها وكانت كبيرة تعى ما يقال لها فقالت لها (قصيه) أى اتبعى أثره وخذى خبره وتطلبى شأنه من نواحى البلد فخرجت لذلك (فبصرت به عن جنب) . قال ابن عباس عن جانب ، وقال مجاهد بصرت به عن جنب عن بعيد

وقال قتادة جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون وأحبته امرأة الملك واستطلقته منه عرضوا عليه المراضع التى فى دارهم فلم يقبل منها ثديا وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته فلما رأته بأيديهم عرفته ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها . قال الله تعالى (وحرمنا عليه المراضع من قبل) أى تحريما قدريا وذلك لكرامته عند الله وصيانته له أن يرتضع غير ثدى أمه ولأن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك سببا إلى رجوعه إلى أمه لترضعه وهى آمنة بعد ما كانت خائفة فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه (قالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون) قال ابن عباس فلما قالت ذلك أخذوها وشكوا فى أمرها وقالوا لها وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى سرور الملك ورجاء منفعته فأرسلوها فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم ذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ففرحوا بذلك فرحاً شديدا وذهب البشير إلى امرأة الملك فاستدعت أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها عطاء

جزيلا وهى لا تعرف أنها أمه فى الحقيقة ولكن لكونه وافق ثديها، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه فأبت عليها وقالت ؛ إن لى بعلا وأولاداً ولا أقدر على القام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك وأجرت عليها النفقة والصلاة والكساوى والإحسان الجزيل فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا فى عز وجاه ورزق دار . ولهذا جاء فى الحديث « مثل الذى يعمل ويحتسب فى صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها » ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل يوم وليلة أو نحوه والله أعلم فسبحان من بيده الأمر ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن الذى يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجاً وبعد كل ضيق مخرجاً ، ولهذا قال تعالى (فرددناه إلى أمه كى تقر عينها) أى به (ولا تحزن) أى عليه (ولتعلم أن وعد الله حق) أى فيما وعدها من رده إليها وجعله من المرسلين فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين فعاملته فى تربيته ماينبغى له طبعا وشرعا . وقوله تعالى (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى حكم الله فى أفعاله وعواقبها المحمودة التى هو المحمود عليها فى الدنيا والآخرة فربما يقع الأمر كريها إلى النفوس وعاقبته محمودة فى نفس الأمر كما قال تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) وقال تعالى (فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا)

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى عليه السلام ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى آتاه الله حكما وعلما قال مجاهد يعنى النبوة (وكذلك نجزى المحسنين) ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدره له من النبوة والتكليم فى قضية قتله ذلك القبطى الذى كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين فقال تعالى (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها) قال ابن جريج عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس وذلك بين المغرب والعشاء . وقال ابن المنكدر عن عطاء بن يسار عن ابن عباس كان ذلك نصف النهار وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة والسدى وقتادة (فوجد فيها رجلين يقتتلان) أى يتضاربان ويتنازعان (هذا من شيعته) أى إسرائيلى (وهذا من عدوه) أى قبطى ، قاله ابن عباس وقتادة والسدى ومحمد بن إسحق ، فاستغاث الإسرائيلى بموسى عليه السلام فوجد موسى فرصة وهى غفلة الناس فعمد إلى القبطى (فوكزه موسى فقضى عليه) قال مجاهد فوكزه أى طعنه بجمع كفه وقال قتادة وكزه بعصا كانت معه فقضى عليه أى كان فيها حتفه فمات (قال) موسى (هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين * قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم * قال رب بما أنعمت على) أى بما جعلت لى من الجاه والعز والنعمة (فلن أكون ظهيرا) أى معينا (للمجرمين) أى الكافرين بك . المخالفين لأمرك

﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ * فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن موسى عليه السلام لما قتل ذلك القبطى أنه أصبح (فى المدينة خائفا) أى من معرة ما فعل (يترقب) أى يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر فمر فى بعض الطرق فاذا ذلك الذى استنصره بالأمس على ذلك القبطى يقاتل آخر فلما مر عليه موسى استصرخه على الآخر فقال له موسى (إنك لغوى مبين) أى ظاهر الغواية كثير الشر ثم عزم موسى على البطش بذلك القبطى فاعتقد الاسرائيلى لخوره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك فقال يدفع عن نفسه (يا موسى) أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ؟ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى عليه السلام فلما سمعها ذلك القبطى لففها من فمه ثم ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده فعلم فرعون بذلك فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّٰصِحِينَ ﴾

قال تعالى (وجاء رجل) وصفه بالرجولية لأنه خالف الطريق فسلك طريقا أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه فسبق إلى موسى فقال له يا موسى (إن الملأ يأتمرون بك) أى يتشاورون فيك (ليقتلوك فاخرج) أى من البلد (إنى لك من الناصحين)

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾

لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته فى أمره خرج من مصر وحده ولم يألف ذلك قبله بل كان فى رفاهية ونعمة ورياسة (فخرج منها خائفا يترقب) أى يتلفت (قال رب نجنى من القوم الظالمين) أى من فرعون وملئه فذكروا أن الله سبحانه وتعالى بعث إليه ملكا على فرس فأرشده إلى الطريق فالله أعلم (ولما توجه تلقاء مدين) أى أخذ طريقا سالكا مهيعا فرح بذلك (قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) أى الطريق الأقوم ففعل الله به ذلك وهداه إلى الصراط المستقيم فى الدنيا والآخرة فجعله هاديا مهديا (ولما ورد ماء مدين) أى لما وصل إلى مدين وورد ماءها وكان لها بئر يرده رعاء الشاء (وجد عليه أمة من الناس يسقون) أى جماعة يسقون (ووجد من دونهم امرأتين تذودان) أى تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا فلما رآهما موسى عليه السلام رق لهما ورحمهما (قال ما خطبكما ؟) أى ما خبركما لا تردان مع هؤلاء ؟ (قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء) أى لا يحصل لنا سقى إلا بعد فراغ هؤلاء (وأبونا شيخ كبير) أى فهذا الحال الملجىء لنا إلى ما ترى قال الله تعالى (فسقى لهما) قال أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا عبيد الله أنبأنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون قال فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال فاذا هو بامرأتين تذودان قال ما خطبكما ؟ فحدثتاه فأتى الحجر فرفعه ثم لم يستق إلا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم ، إسناد صحيح . وقوله تعالى (ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام . إلا البقل وورق الشجر وكان حافيا

فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه وجلس فى الظل وهو صفوة الله من خلقه وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق تمرة . وقوله (إلى الظل) قال ابن عباس وابن مسعود والسدى جلس تحت شجرة ، وقال ابن جرير : حدثنى الحسين بن عمرو العنقزى حدثنا أبى حدثنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال : حثثت على جمل ليلتين حتى صبحت مدين فسألت عن الشجرة التى أوى إليها موسى فإذا هى شجرة خضراء ترف فأهوى إليها جملى وكان جائعا فأخذها جملى فعالجها ساعة ثم لفظها فدعوت الله لموسى عليه السلام ثم انصرفت ، وفى رواية عن ابن مسعود أنه ذهب إلى الشجرة التى كلم الله منها موسى كما سيأتى إن شاء الله فالله أعلم ، وقال السدى كانت الشجرة من شجر السمر ، وقال عطاء بن السائب لما قال موسى (رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) أسمع المرأة

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

لما رجعت المرأتان سريعا بالغنم إلى أبيهما أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعا فسألهما عن خبرهما فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها قال الله تعالى (فجاءته إحداهما تمشى على استحياء) أى مشى الحرائر كما روى عن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أنه قال : جاءت مستترة بكم درعها ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو نعيم حدثنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون قال : قال عمر رضى الله عنه جاءت تمشى على استحياء قائلة بثوبها على وجهها ليست بسلفع من النساء ولاجة خراجة . هـذا إسناد صحيح ، قال الجوهرى : السلفع من الرجال الجسور ومن النساء الجريئة السليطة ومن النوق الشديدة . (قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) وهذا تأدب فى العبارة لم تطلبه طلبا مطلقا لئلا يوهم ريبة بل قالت : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنـا يعنى ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا (فلما جاءه وقص عليه القصص) أى ذكر له ما كان من أمره وما جرى له من السبب الذى خرج من أجله من بلده (قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) يقول طب نفسا وقرعينا فقد خرجت من مملكتهم فلا حكم لهم فى بلادنا ، ولهذا قال (نجوت من القوم الظالمين) وقد اختلفت المفسرون فى هذا الرجل من هو ؟ على أقوال أحدها أنه شعيب النبى عليه السلام الذى أرسل إلى أهل مدين وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء ، وقد قاله الحسن البصرى وغير واحد ، ورواه ابن أبى حاتم حدثنا أبى حـدثنا عبـد العزيز الأزدى حـدثنا مالك بن أنس أنه بلغه أن شعيبا هو الذى قص عليه موسى القصص قال (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) وقد روى الطبرانى عن سلمة بن سعد الغزى أنه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له « مرحبا بقوم شعيب وأختان موسى هديت » وقال آخرون بل كان ابن أخى شعيب وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب وقال آخرون كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة لأنه قال لقومه (وما قوم لوط منكم ببعيد) وقد كان هلاك قوم لوط فى زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن ، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة كما ذكره غير واحد . وما قيل إن شعيبا عاش مدة طويلة إنما هو والله أعلم احتراز من هذا الإشكال ثم من القوى لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه

لأوشك أن ينص على اسمه فى القرآن ههنا ، وما جاء فى بعض الأحاديث من التصريح بذكره فى قصة موسى لم يصح إسناده كما سنذكره قريبا إن شاء الله ، ثم من الموجود فى كتب بنى إسرائيل أن هذا الرجل اسمه ثيرون والله أعلم . قال أبوعبيدة بن عبدالله بن مسعود : ثيرون هو ابن أخي شعيب عليه السلام وعن أبى حمزة عن ابن عباس قال الذى استأجر موسى يثرى صاحب مدين رواه ابن جرير به ثم قال الصواب إن هذا لايدرك إلا بخبر ولا خبر تجب به الحجة فى ذلك وقوله تعالى (قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) أى قالت إحدى ابنتى هذا الرجل قيل هى التى ذهبت وراء موسى عليه السلام قالت لأبيها (يا أبت استأجره) أى لرعية هذه الغنم قال عمر وابن عباس وشريح القاضى وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحق وغير واحد لما قالت (إن خير من استأجرت القوى الأمين) قال لها أبوها وما علمك بذلك ؟ قالت له إنه رفع الصخرة التى لايطيق حملها إلا عشرة رجال وإنى لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لى كونى من ورائى فاذا اختلف على الطريق فاحذفى لى بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدى اليه . وقال سفيان الثورى عن أبى إسحق عن أبى عبيدة عن عبد الله هو ابن مسعود قال . أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين تفرس فى عمر صاحب ويوسف حين قال أكرمى مثواه وصاحبة موسى حين قالت : (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين* قال (إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين) أى طلب اليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين ، قال شعيب الجبائى وهما صفوريا وليا وقال محمد بن إسحق صفوريا وشرفا ويقال ليا وقد استدل أصحاب أبى حنيفة بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال بعتك أحد هذين العبدين بمائة فقال : اشتريت ، أنه يصح والله أعلم ، وقوله (على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك) أى على أن ترعى غنمى ثمانى سنين فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو اليك وإلا ففى الثمان كفاية (وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) أى لاأشاقك ولا أؤاذيك ولا أماريك وقد استدلوا بهذه الآية الكريمة لمذهب الأوزاعى فيما إذا قال بعتك هذا بعشرة نقداً أو بعشرين نسيئة أنه يصح ويختار المشترى بأيهما أخذه صح ، وحمل الحديث المروى فى سنن أبى داود « من باع بيعتين فى بيعة فله أوكسهما أو الربا » على هذا المذهب ، وفى الاستدلال بهذه الآية وهذا الحديث على هذه المذهب نظر ليس هذا موضع بسطه لطوله . والله أعلم . ثم قد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم فى صحة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية واستأنسوا فى ذلك بما رواه أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه فى كتابه السنن حيث قال باب استئجار الأجير على طعام بطنه حدثنا محمد حدثنا محمد بن المصفى حدثنا بقية بن الوليد عن مسلمة ابن على عن سعيد بن أبى أيوب عن الحارث بن يزيد عن على بن رباح قال سمعت عتبة بن المنذر السلمى يقول كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ طسم حتى إذا بلغ قصة موسى قال « إن موسى آجر نفسه ثمانى سنين أو عشر سنين على عفة فرجه وطعام بطنه » وهذا الحديث من هذا الوجه ضعيف لأن مسلمة بن على وهو الخشنى الدمشقى البلاطى ضعيف الرواية عند الأئمة ولكن قد روى من وجه آخر وفيه نظر أيضا وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنا عبدالله بن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمى عن على بن رباح اللخمى قال سمعت عتبة بن المنذر السلمى صاحب رسول الله ﷺ يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه » وقوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام (قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلاعدوان على والله على ما نقول وكيل) يقول إن موسى قال لصهره الأمر على ماقلت من أنك استأجرتنى على ثمان سنين فإن أتممت عشراً فمن عندى فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد وخرجت من الشرط ولهذا قال (أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على) أى فلا حرج على مع أن الكامل وإن كان مباحاً لكنه فاضل من جهة أخرى بدليل من خارج كما قال تعالى (فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحمزة بن عمرو الأسلمى رضى الله عنه وكان كثير الصيام وسأله عن الصوم فى السفر فقال « إن شئت فصم وإن شئت فأفطر » مع أن فعل الصيام راجح من دليل آخر ، هذا وقد دل الدليل على أن موسى عليه السلام إنما فعل أكمل الأجلين

وأتمهما وقال البخارى حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا مروان بن شجاع عن سالم الأفطس عن سعيد ابن جبير قال : قال سألنى يهودى من أهل الحيرة أى الأجلين قضى موسى ؟ فقلت لا أدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله فقدمت على ابن عباس رضى الله عنه فسألته فقال قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل . هكذا رواه حكيم بن جبير وغيره عن سعيد بن جبير ، ووقع فى حديث الفتون من رواية القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبير أن الذى سأله رجل من أهل النصرانية والأول أشبه والله أعلم . وقد روى من حديث ابن عباس مرفوعا قال ابن جرير حدثنا أحمد بن محمد الطوسى حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنى إبراهيم بن يحيى بن أبى يعقوب عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « سألت جبريل أى الأجلين قضى موسى قال أتمهما وأكملهما » ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه عن الحميدى عن سفيان وهو ابن عيينة حدثنى إبراهيم بن يحيى بن أبى يعقوب وكان من أسنانى أو أصغر منى فذكره . وفى إسناده قلب وإبراهيم هذا ليس بمعروف . ورواه البزار عن أحمد بن أبان القرشى عن سفيان ابن عيينة عن إبراهيم بن أعين عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبى ﷺ فذكره ثم قال لا نعرفه مرفوعا عن ابن عباس إلا من هذا الوجه . ثم قال ابن أبى حاتم قرئ على يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أنبأنا عمرو بن الحارث عن يحيى بن ميمون الحضرمى عن يوسف بن تيرح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أى الأجلين قضى موسى ؟ قال « لا علم لى » فسأل رسول الله ﷺ جبريل فقال جبريل : لا علم لى ، فسأل جبريل ملكا فوقه فقال : لا علم لى ، فسأل ذلك الملك ربه عز وجل عما سأله عنه جبريل عما سأله عنه محمد صلى الله عليه وسلم فقال الرب عز وجل : قضى أبرهما وأبقاهما أو قال أزكاهما . وهذا مرسل وقد جاء مرسلا من وجه آخر وقال سنيد حدثنا حجاج عن ابن جريج قال : قال مجاهد إن النبى صلى الله عليه وسلم سأل جبريل أى الأجلين قضى موسى ؟ فقال سوف أسأل إسرافيل فسأله فقال سوف أسأل الرب عز وجل فسأله فقال أبرهما وأوفاهما ﴿ طريق أخرى مرسلة أيضا ﴾ قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب القرظى قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الأجلين قضى موسى قال « أوفاهما وأتمهما » فهذه طرق متعاضدة ثم قد روى هذا مرفوعاً من رواية أبى ذر رضى الله عنه . قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أبو عبيد الله يحيى بن محمد بن السكن حدثنا إسحق بن إدريس حدثنا عويذ بن أبى عمران الجونى عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبى ذر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل أى الأجلين قضى موسى ؟ قال — « أوفاهما وأبرهما — قال — وإن سئلت أى المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما » ثم قال البزار لا نعلم يروى عن أبى ذر إلا بهذا الاسناد . وقد رواه ابن أبى حاتم من حديث عويذ بن أبى عمران وهو ضعيف ثم قد روى أيضا نحوه من حديث عتبة بن المنذر بزيادة غريبة جدا فقال أبو بكر البزار حدثنا عمر بن الخطاب السجستانى حدثنا يحيى بن بكير حدثنا ابن لهيعة حدثنا الحارث بن يزيد عن على بن رباح اللخمى قال سمعت عتبة ابن المنذر يقول إن رسول الله ﷺ سئل أى الأجلين قضى موسى قال « أبرهما وأوفاهما » ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم « إن موسى عليه السلام لما أراد فراق شعيب عليه السلام أمر امرأته أن تسأل أباها ان يعطيها من غنمه مايعيشون به فأعطاها ماولدت غنمه فى ذلك العام من قالب لون قال فما مرت شاة إلا ضرب موسى جنبها بعصاه فولدت قوالب ألوان كلها وولدت ثنتين وثلاثا كل شاة ليس فيها فشوش ولا ضبوب ولا كميشة تفوت الكف ولا تغول » وقال رسول الله ﷺ « إذا فتحتم الشام فإنكم ستجدون بقايا منها وهى السامرية » هكذا أورده البزار ، وقد رواه ابن أبى حاتم بأبسط من هذا فقال حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثنى عبد الله بن لهيعة ح وحدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان أنبأنا الوليد أنبأنا عبد الله بن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمى عن على بن رباح اللخمى قال سمعت عتبة بن المنذر السلمى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه فلما وفى الأجل

ـ قيل يارسول الله أى الأجلين ؟ ـ قال أبرهما وأوفاهما ، فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت غنمه من قالب لون من ولد ذلك العام وكانت غنمه سوداء حسناء فانطلق موسى عليه السلام إلى عصاه فسماها من طرفها ثم وضعها فى أدنى الحوض ثم أوردها فسقاها ووقف موسى بازاء الحوض فلم تصدر منها شاة إلا وضرب جنبها شاة شاة قال فأتأمت وألبنت ووضعت كلها قوالب ألوان إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش قال يحيى ولا ضبون وقال صفوان ولا صبوب قال أبو زرعة الصواب طنوب ولا عزوز ولا ثعول ولا كميشة تفوت الكف قال النبى صلى الله عليه وسلم « لو افتتحتم الشام وجدتم بقاياتلك الغنم وهى السامرية » وحدثنا أبو زرعة أنبأنا صفوان قال سمعت الوليد قال سألت ابن لهيعة ما الفشوش ؟ قال التى تفش بلبنها واسعة الشخب قلت فما الضبوب قال الطويلة الضرع تجره قلت فما العزوز قال ضيقة الشخب قال فما الثعول ؟ قال التى ليس لها ضرع إلا كهيئة حلمتين قلت فما الكميشة ؟ قال التى تفوت الكف كميشة الضرع صغير لا يدركه الكف . مدار هذا الحديث على عبد الله بن لهيعة المصرى وفى حفظه سوء وأخشى أن يكون رفعه خطأ والله أعلم . وينبغى أن يروى ليس فيها فشوش ولا عزوز ولاضبوب ولا ثعول ولا كميشة لتذكر كل صفة ناقصة مع ما يقابلها من الصفات الناقصة وقد روى ابن جرير من كلام أنس بن مالك موقوفا عليه ما يقارب بعضه بإسناد جيد فقال حدثنا محمد بن المثنى حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبى حدثنا قتادة حدثنا أنس بن مالك رضى الله عنه قال لما دعا نبى الله موسى عليه السلام صاحبه إلى الأجل الذى كان بينهما قال له صاحبه : كل شاة ولدت على غير لونها فلك ولدها فعمد موسى فرفع حبالا على الماء فلما رأت الحيال فزعت فجالت جولة فولدن كلهن بلقا إلا شاة واحدا فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِى ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ * ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾

قد تقدم فى تفسير الآية قبلها أن موسى عليه السلام قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأتقاهما وقد يستفاد هذا أيضا من الآية الكريمة حيث قال تعالى (فلما قضى موسى الأجل) أى الأكمل منهما والله أعلم ، وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد قضى عشر سنين وبعدها عشرا أخر ، وهذا القول لم أره لغيره وقد حكاه عنه ابن أبى حاتم وابن جرير فالله أعلم ، وقوله (وسار بأهله) قالوا كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله فعزم على زيارتهم فى خفية من فرعون وقومه فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التى وهبها له صهره فسلك بهم فى ليلة مطيرة مظلمة باردة فنزل منزلا فجعل كلما أورى زنده لا يضىء شيئا فتعجب من ذلك ، فبينما هو كذلك (آنس من جانب الطور نارا) أى رأى ناراً تضىء على بعد (فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً) أى حتى أذهب إليها (لعلى آتيكم منها بخبر) وذلك لأنه قد أضل الطريق (أو جذوة من النار) أى قطعة منها (لعلكم تصطلون) أى تستدفئون بها من البرد قال الله تعالى (فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن) أى من جانب الوادى مما يلى الجبل عن يمينه من ناحية الغرب كما قال تعالى (وما كنت

بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر) فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة والجبل الغربى عن يمينه والنار وجدها تضطرم فى شجرة خضراء فى لحف الجبل مما يلى الوادى فوقف باهتا فى أمرها فناداه ربه (من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة) قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة عن عبد الله قال : رأيت الشجرة التى نودى منها موسى عليه السلام سمرة خضراء ترف إسناده مقارب ، وقال محمد بن إسحق عن بعض من لا يتهم عن وهب بن منبه قال : شجرة من العليق وبعض أهل الكتاب يقول إنها من العوسج وقال قتادة هى من العوسج وعصاه من العوسج ، وقوله تعالى (أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين) أى الذى يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين الفعال لما يشاء لا إله غيره ولا رب سواه تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات فى ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله سبحانه . وقوله (وأن ألق عصاك) أى التى فى يدك كما قرره على ذلك فى قوله تعالى (وما تلك بيمينك يا موسى ؟ قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى) والمعنى أما هذه عصاك التى تعرفها (ألقها فألقاها فإذا هى حية تسعى) فعرف وتحقق أن الذى يكلمه ويخاطبه هو الذى يقول للشىء كن فيكون كما تقدم بيان ذلك فى سورة طه : وقال ههنا (فلما رآها تهتز)أى تضطرب (كأنها جان ولى مدبرا) أى فى حركتها السريعة مع عظم خلقتها وقوائمها واتساع فمها واصطكاك أنيابها وأضراسها بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها تنحدر فى فيها تتقعقع كأنها حادرة فى واد فعند ذلك (ولى مدبرا ولم يعقب) أى ولم يكن يلتفت لأن طبع البشرية ينفر من ذلك فلما قال الله له (يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين) رجع فوقف فى مقامه الأول ثم قال الله تعالى (اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) أى إذا أدخلت يدك فى جيب درعك ثم أخرجتها فانها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر فى لمعان البرق ، ولهذا قال(من غير سوء)أى من غير برص وقوله تعالى(واضمم إليك جناحك من الرهب) قال مجاهد من الفزع وقال قتادة من الرعب وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير مما حصل لك من خوفك من الحية والظاهر أن المراد أعم من هذا وهو أنه أمر عليه السلام إذا خاف من شىء أن يضم إليه جناحه من الرهب وهو يده فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده فانه يزول عنه ما يجده أو يخف إن شاء الله تعالى وبه الثقة . قال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا الربيع بن تغلب الشيخ صالح أخبرنا أبو إسماعيل المؤدب عن عبد الله بن مسلم عن مجاهد قال : كان موسى عليه السلام قد ملىء قلبه رعبا من فرعون فكان إذا رآه قال : اللهم إنى أدرأ بك فى نحره وأعوذ بك من شره فنزع الله ما كان فى قلب موسى عليه السلام وجعله فى قلب فرعون فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار . وقوله تعالى (فذانك برهانان من ربك) يعنى إلقاء العصا وجعلها حية تسعى ، وإدخاله يده فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه ولهذا قال تعالى (إلى فرعون وملئه) أى وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع (إنهم كانوا قوما فاسقين) أى خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ودينه

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾

لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون الذى إنما خرج من ديار مصر فراراً منه وخوفا من سطوته (قال رب إنى قتلت منهم نفسا) يعنى ذلك القبطى (فأخاف أن يقتلون) أى إذا رأونى (وأخى هارون هو أفصح منى لساناً) وذلك أن موسى عليه السلام كان فى لسانه لثغة بسبب ما كان تناول تلك الجمرة حين خير بينها وبين التمرة أو الدرة فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه فحصل فيه شدة فى التعبير ولهذا قال (واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى * واجعل

لى وزيراً من أهلى هارون أخى اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى) أى يؤنسنى فيما أمرتنى به من هـذا المقام العظيم وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد ولهذا قال (وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءا) أى وزيراً ومعيناً ومقويا لأمرى يصدقنى فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل لأن خبر الاثنين أنجع فى النفوس من خبر الواحد ولهذا قال (إنى أخاف أن يكذبون) وقال محمد بن إسحاق (ردءا يصدقنى) أى يبين لهم عنى ما أكلمهم به فانه يفهم عنى ما لا يفهمون فلما سأل ذلك موسى قال الله تعالى (سنشد عضدك بأخيك) أى سنقوى أمرك ونعزجانبك بأخيك الذى سألت له أن يكون نبيا معك كما قال فى الآية الأخرى (قد أوتيت سؤلك ياموسى) وقال تعالى (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) ولهذا قال بعض السلف ليس أحد أعظم منة على أخيه من موسى على هارون عليهما السلام فانه شفع فيه حتى جعله الله نبيا ورسولا معه إلى فرعون وملئه ولهذا قال تعالى فى حق موسى (وكان عند الله وجيها) وقوله تعالى (ونجعل لكما سلطانا) أى حجة قاهرة (فلا يصلون إليكما بآياتنا) أى لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله كما قال تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ـ إلى قوله ـ والله يعصمك من الناس) وقال تعالى (الذين يبلغون رسالات الله ـ إلى قوله ـ وكفى بالله حسيباً) أى وكفى بالله ناصراً ومعينا ومؤيداً ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما فى الدنيا والآخرة فقال تعالى (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) كما قال تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز) وقال تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا) إلى آخر الآية ووجه ابن جرير على أن المعنى ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما ثم يبتدىء فيقول (بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) تقديره أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا ، ولاشك أن هذا المعنى صحيح وهو حاصل من التوجيه الأول فلا حاجة إلى هذا والله أعلم

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن مجىء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالة القاهرة على صدقهما فيما أخبرا به عن الله عزوجل من توحيده واتباع أوامره فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه وأيقنوا أنه من عند الله عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهتة وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق فقالوا (ما هـذا إلا سحر مفترى) أى مفتعل مصنوع وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه فما صعد معهم ذلك . وقوله (وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين) يعنون عبادة الله وحده لاشريك له، يقولون ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى فقال موسى عليه السلام مجيباً لهم (ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده) يعنى منى ومنكم ، وسيفصل بينى وبينكم ولهذا قال (ومن تكون له عاقبة الدار) أى من النصرة والظفر والتأييد (إنه لا يفلح الظالمون) أى المشركون بالله عز وجل

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه فى دعواه الالهية لنفسه القبيحة لعنه الله كما قال الله تعالى (فاستخف قومه فأطاعوه) الآية وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافه أذهانهم ولهذا قال (يا أيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى) وقال تعالى إخبارا عنه (فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى * إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) يعنى أنه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالى مصرحا لهم بذلك فأجابوه سامعين مطيعين ولهذا انتقم الله تعالى منه فجعله عبرة لغيره فى الدنيا والآخرة وحتى إنه واجه موسى الكليم بذلك فقال (لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين) وقوله (فأوقدلى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى) يعنى أمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته أن يوقد له على الطين يعنى يتخذ له آجراً لبناء الصرح وهو القصر المنيف الرفيع العالى كما قال فى الآية الأخرى (وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب) وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذى لم ير فى الدنيا بناء أعلى منه إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون ولهذا قال (وإنى لأظنه من الكاذبين) أى فى قوله إن ثم ربا غيرى لا أنه كذبه فى أن الله تعالى أرسله لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع جل وعلا فانه قال (ومارب العالمين ؟) وقال (لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين) وقال (يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى) وهذا قول ابن جرير . وقوله تعالى (واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون) أى طغوا وتجبروا وأكثروا فى الأرض الفساد واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد (فصب عليهم ربك صوت عذاب إن ربك لبالمرصاد) ولهذا قال تعالى ههنا (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم) أى أغرقناهم فى البحر فى صبيحة واحدة فلم يبق منهم أحد (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار) أى لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم فى تكذيب الرسل وتعطيل الصانع (ويوم القيامة لاينصرون) أى فاجتمع عليهم خزى الدنيا موصولا بذل الآخرة كما قال تعالى (أهلكنا هم فلا ناصر لهم) وقوله تعالى (وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة) أى وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله كما أنهم فى الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم كذلك (ويوم القيامة هم من المقبوحين) قال قتادة : وهذه الآية كقوله تعالى (وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم ، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم ، من إنزال التوراة عليه بعد ماأهلك فرعون وملأه . وقوله تعالى (من بعدما أهلكنا القرون الأولى) يعنى أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين كما قال تعالى (وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة * فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية) وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا محمد وعبد الوهاب قالا حدثنا عوف عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية الذين مسخوا قردة بعد موسى ثم قرأ (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) الآية ورواه ابن أبى حاتم من حديث عوف بن أبى جميلة الأعرابى بنحوه وهكذا رواه أبو بكر البزار فى مسنده عن عمرو بن على الفلاس عن يحيى القطان عن عوف عن أبى نضرة عن أبى سعيد موقوفا ثم رواه عن نصر بن على عن عبد الأعلى عن عوف عن أبى نضرة عن أبى سعيد رفعه إلى النبى ﷺ قال «ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى» ثم قرأ (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكنا القرون الأولى) الآية.

وقوله (بصائر للناس وهدى ورحمة) أى من العمى والغى وهدى إلى الحق ورحمة أى إرشادا إلى العمل الصالح (لعلهم يتذكرون) أى لعل الناس يتذكرون به ويهتدون بسببه

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى منبها على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبرا كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم وهو رجل أمى لا يقرأ شيئا من الكتب نشأ بين قوم لا يعرفون شيئا من ذلك كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها قال تعالى (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون) الآية أى وما كنت حاضرا لذلك ولكن الله أوحاه اليك ، وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه ثم قال تعالى (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) الآية وقال فى آخر السورة (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك) وقال بعد ذكر قصة يوسف (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) الآية وقال فى سورة طه (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق) الآية وقال ههنا بعدما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها وكيف كان ابتداء إيحاء الله إليه وتكليمه له (وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر) يعنى ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربى الذى كلم الله موسى من الشجرة التى هى شرقية على شاطىء الوادى (وما كنت من الشاهدين) لذلك ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى اليك ذلك ليكون حجة وبرهانا على قرون قد تطاول عهدها ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين : وقوله تعالى (وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا) أى وما كنت مقيما فى أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبيها شعيب وما قال لقومه وما ردوا عليه (ولكنا كنا مرسلين) أى ولكن نحن أوحينا إليك ذلك وأرسلناك إلى الناس رسولا (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) قال أبو عبد الرحمن النسائى فى التفسير من سننه أخبرنا على بن حجر أخبرنا عيسى بن يونس عن حمزة الزيات عن الأعمش عن على بن مدرك عن أبى زرعة عن أبى هريرة رضى الله عنه (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) قال نودوا أن: يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألونى وأجبتكم قبل أن تدعونى وهكذا رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث جماعة عن حمزة وهو ابن حبيب الزيات عن الأعمش ورواه ابن جرير من حديث وكيع ويحيى بن عيسى عن الأعمش عن على بن مدرك عن أبى زرعة وهو ابن عمرو بن جرير أنه قال ذلك من كلامه والله أعلم .

وقال مقاتل بن حيان (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) أمتك فى أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت. وقال قتادة (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) موسى وهذا والله أعلم أشبه بقوله تعالى (وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر) ثم أخبر ههنا بصيغة أخرى أخص من ذلك وهو النداء كما قال تعالى (وإذ نادى ربك موسى) وقال تعالى (إذ ناداه ربه بالوادى المقدس طوى) وقال تعالى (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا) وقوله تعالى (ولكن رحمة من ربك) أى ما كنت مشاهداً لشىء من ذلك ولكن الله تعالى أوحاه اليك وأخبرك به رحمة منه بك وبالعباد بإرسالك اليهم (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون) أى لعلهم يهتدون بما جئتهم به

من الله عز وجل (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا) الآية أى وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ولينقطع عذرهم إذاجاءهم عذاب من الله بكفرهم فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن (أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لوأنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة) وقال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقال تعالى (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير) الآية والآيات فى هذا كثيرة

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ * قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد صلى الله عليه وسلم قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد (لولا أوتى مثل ما أوتى موسى) الآية يعنون والله أعلم من الآيات الكثيرة مثل العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وتنقيص الزروع والثمار مما يضيق على أعداء الله وكفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة، والحجج القاهرة، التى أجراها الله تعالى على يدى موسى عليه السلام حجة وبرهاناً له على فرعون وملئه وبنى إسرائيل، ومع هذا كله لم ينجع فى فرعون وملئه بل كفروا بموسى وأخيه هرون كما قالوا لهما (أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين) وقال تعالى (فكذبوهما فكانوا من المهلكين) ولهذا قال هاهنا (أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل) أى أولم يكفر البشر بما أوتى موسى من تلك الآيات العظيمة (قالوا ساحران تظاهرا) أى تعاونا (وقالوا إنا بكل كافرون) أى بكل منهما كافرون، ولشدة التلازم والتصاحب والمقاربة بين موسى وهرون دل ذكر أحدهما على الآخر كما قال الشاعر:

فما أدرى إذا يممت أرضا ... أريد الخير أيهما يليني

أى فما أدرى يليني الخير أو الشر. قال مجاهد: أمرت اليهود قريشا أن يقولوا لمحمد صلى الله عليه وسلم ذلك فقال الله (أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا) قال يعنى موسى وهرون صلى الله عليهما وسلم (تظاهرا) أى تعاونا وتناصرا وصدق كل منها الآخر؟ وبهذا قال سعيد بن جبير وأبو رزين فى قوله (ساحران) يعنون موسى وهرون وهذا قول جيد قوى والله أعلم، وقال مسلم بن يسار عن ابن عباس (قالوا ساحران تظاهرا) قال يعنون موسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم وهذا رواية الحسن البصرى. وقال الحسن وقتادة يعنى عيسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم وهذا فيه بعد لأن عيسى لم يجر له ذكر ههنا والله أعلم. وأما من قرأ (سحران تظاهرا) فقال على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس يعنون التوراة والقرآن وكذا قال عاصم الجندى والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال السدى: يعنى صدق كل واحد منهما الآخر وقال، عكرمة: يعنون التوراة والإنجيل وهو رواية عن أبى زرعة واختاره ابن جرير. وقال الضحاك وقتادة. الإنجيل والقرآن والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب والظاهر على قراءة (سحران) أنهم يعنون التوراة والقرآن لأنه قال بعده (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه) وكثيراً مايقرن الله

بين التوراة والقرآن كما فى قوله تعالى (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس — إلى أن قال — وهذا كتاب أنزلناه مبارك) وقال فى آخر السورة (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن) الآية وقال (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) وقالت الجن (إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه) وقال ورقة بن نوفل : هذا الناموس الذى أنزل على موسى . وقد علم بالضرورة لذوى الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتابا من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن وبعده فى الشرف والعظمة الكتاب الذى أنزله على موسى بن عمران عليه السلام وهو الكتاب الذى قال الله فيه (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء) والإنجيل إنما أنزل متمما للتوراة ومحلا لبعض ماحرم على بنى إسرائيل ولهذا قال تعالى (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين) أى فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل قال الله تعالى (فإن لم يستجيبوا لك) أى فان لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق (فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) أى بلا دليل ولا حجة (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) أى بغير حجة مأخوذة من كتاب الله (إن الله لا يهدى القوم الظالمين) . وقوله تعالى (ولقد وصلنا لهم القول) قال مجاهد فصلنا لهم القول . وقال السدى بينا لهم القول وقال قتادة : يقول تعالى أخبرهم كيف صنع بمن مضى وكيف هو صانع (لعلهم يتذكرون) قال مجاهد وغيره (وصلنا لهم) يعنى قريشا وهذا هو الظاهر لكن قال حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة عن رفاعة — رفاعة هذا هو ابن قرظة القرظى ، وجعله ابن منده : رفاعة بن شموال خال صفية بنت حيي وهو الذى طلق تميمة بنت وهب التى تزوجها بعده عبد الرحمن ابن الزبير بن باطا ، كذا ذكره ابن الأثير — قال نزلت (ولقد وصلنا لهم القول) فى عشرة أنا أحدهم . رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديثه

﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى الْجَٰهِلِينَ ﴾

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن كما قال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به) وقال تعالى (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله) وقال تعالى (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) وقال تعالى (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى — إلى قوله — فاكتبنا مع الشاهدين) قال سعيد بن جبير نزلت فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى فلما قدموا على النبى ﷺ قرأ عليهم (يس والقرآن الحكيم) حتى ختمها فجعلوا يبكون وأسلموا ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) يعنى من قبل هذا القرآن كنا مسلمين أى موحدين مخلصين لله مستجيبين له . قال الله تعالى (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) أى هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثانى ولهذا قال (بما صبروا) أى على اتباع الحق فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس وقد ورد فى الصحيح من حديث عامر الشعبى عن أبى بردة عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين . رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بى ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها

ثم أعتقها فتزوجها » . وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحق السيلحينى حدثنا ابن لهيعة عن سليمان بن عبدالرحمن عن القاسم بن أبى أمامة قال : إنى لتحت راحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فقال قولا حسناً جميلا وقال فيما قال « من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين وله مالنا وعليه ماعلينا » وقوله تعالى (ويدرءون بالحسنة السيئة) أى لا يقابلون السيء بمثله ولكن يعفون ويصفحون (ومما رزقناهم ينفقون) أى ومن الذى رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله فى النفقات الواجبة لأهليهم وأقاربهم والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات وصدقات النفل والقربات وقوله تعالى (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) أى لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم بل كما قال تعالى (وإذا مروا باللغو مروا كراما) (وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين) أى إذا سفه عليهم سفيه وكلمهم بما لا يليق بهم الجواب عنه أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب ؛ ولهذا قال عنهم إنهم قالوا (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين) أى لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبها . قال محمد بن إسحق فى السيرة ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة عشرون رجلا أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه فى المسجد فجلسوا اليه وكلموه وساءلوه ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة فلما فرغوا من مساءلة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش فقالوا لهم خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ما نعلم ركبا أحمق منكم أو كما قالوا لهم فقالوا لهم سلام عليكم لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه لم نأل أنفسنا خيرا . قال ويقال إن النفر النصارى من أهل نجران فالله أعلم أى ذلك كان . قال ويقال والله أعلم ان فيهم نزلت هذه الآيات (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون — إلى قوله — لا نبتغى الجاهلين) قال وسألت الزهرى عن هذه الآيات فيمن نزلت قال مازلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن فى النجاشى وأصحابه رضى الله عنهم والآيات اللاتى فى سورة المائدة (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا — إلى قوله — فاكتبنا مع الشاهدين)

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم إنك يا محمد (لا تهدى من أحببت) أى ليس إليك ذلك إنما عليك البلاغ والله يهدى من يشاء وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة كما قال تعالى (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء) . وقال تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وهذه الآية أخص من هذا كله فانه قال (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) أى هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية وقد ثبت فى الصحيحين أنها نزلت فى أبى طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان يحوطه وينصره ويقوم فى صفه ويحبه حبا شديدا طبعيا لا شرعيا فلما حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان والدخول فى الإسلام فسبق القدر فيه واختطف من يده فاستمر على ما كان عليه من الكفر ولله الحكمة التامة قال الزهرى حدثنى سعيد بن المسيب عن أبيه وهو المسيب بن حزن المخزومى رضى الله عنه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية ابن المغيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل

وعبد الله بن أبي أمية يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والله لأستغفرن لك مالم أنه عنك » فأنزل الله تعالى (ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى) وأنزل فى أبى طالب (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) أخرجاه من حديث الزهرى وهكذا رواه مسلم فى صحيحه والترمذى من حديث يزيد بن كيسان عن أبى حازم عن أبى هريرة قال : لما حضرت وفاة أبى طالب أتاه رسول الله ﷺ فقال « يا عماه قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة » فقال لولا أن تعيرنى بها قريش يقولون ما حمله عليه إلا جزع الموت لأقررت بها عينك لا أقولها إلا لأقر بها عينك فأنزل الله تعالى (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) وقال الترمذى حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن كيسان ، ورواه الإمام أحمد عن يحيى بن سعيد القطان عن يزيد بن كيسان حدثنى أبو حازم عن أبى هريرة فذكره بنحوه وهكذا قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبى وقتادة انها نزلت فى أبى طالب حين عرض عليه رسول الله ﷺ أن يقول لا إله إلا الله فأبى عليه ذلك وقال أى ابن أخى ملة الأشياخ وكان آخر ما قاله هو على ملة عبد المطلب وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن سلمة حدثنا عبد الله ابن عثمان بن خثيم عن سعيد بن أبى راشد قال كان رسول قيصر جاء إلى قال كتب معى قيصر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا فأتيته فدفعت الكتاب فوضعه فى حجره ثم قال « ممن الرجل ؟ » قلت من تنوخ قال « هل لك فى دين أبيك إبراهيم الحنيفية » قلت إنى رسول قوم وعلى دينهم حتى أرجع إليهم فضحك رسول الله ﷺ ونظر إلى أصحابه وقال « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » وقوله تعالى (وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) يقول تعالى مخبرا عن اعتذار بعض الكفار فى عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم (إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) أى نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ويتخطفونا أينما كنا قال الله تعالى مجيبا لهم (أو لم نمكن لهم حرما آمنا) يعنى هذا الذى اعتذروا به كذب وباطل لأن الله تعالى جعلهم فى بلد أمين وحرم معظم آمن منذ وضع فكيف يكون هذا الحرم آمنا لهم فى حال كفرهم وشركهم ولا يكون آمنا لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق ؟ وقوله تعالى (يجبى إليه ثمرات كل شىء) أى من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره وكذلك التاجر والأمتعة (رزقا من لدنا) أى من عندنا (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ولهذا قالوا ما قالوا وقد قال النسائى أنبأنا الحسن بن محمد حدثنا الحجاج عن ابن جريج أخبرنى ابن أبى مليكة قال : قال عمرو بن شعيب عن ابن عباس ولم يسمعه منه أن الحارث بن عامر بن نوفل الذى قال (إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا)

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾

يقول تعالى معرضا بأهل مكة فى قوله تعالى (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها) أى طغت وأشرت وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق كما قال فى الآية الأخرى (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان — إلى قوله — فأخذهم العذاب وهم ظالمون) ولهذا قال تعالى (فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا) أى دثرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم وقوله تعالى (وكنا نحن الوارثين) أى رجعت خرابا ليس فيها أحد وقد ذكر ابن أبى حاتم ههنا عن ابن مسعود أنه سمع كعبا يقول لعمر : إن سليمان عليه السلام قال للهامة

يعنى البومة — مالك لا تأكلين الزرع ؟ قالت ! لأنه أخرج آدم من الجنة بسببه ، قال فمالك لا تشربين الماء ؟ قالت لأن الله تعالى أغرق قوم نوح به ، قال فمالك لا تأوين إلى الخراب ؟ قالت لأنه ميراث الله تعالى ثم تلا (وكنا نحن الوارثين) ثم قال تعالى مخبرا عن عدله وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ولهذا قال (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها) وهى مكة (رسولا يتلو عليهم آياتنا) فيه دلالة على أن النبى الأمى وهو محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث من أم القرى رسول إلى جميع القرى من عرب وأعجام كما قال تعالى (لتنذر أم القرى ومن حولها) وقال تعالى (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) وقال (لأنذركم به ومن بلغ) وقال (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) وتمام الدليل قوله تعالى (وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديداً) الآية فأخبر تعالى أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة وقد قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فجعل تعالى بعثة النبى الأمى شاملة لجميع القرى لأنه مبعوث إلى أمها وأصلها التى ترجع إليها وثبت فى الصحيحين عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال « بعثت إلى الأحمر والأسود » ولهذا ختم به النبوة والرسالة فلا نبى بعده ولا رسول بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة وقيل المراد بقوله (حتى يبعث فى أمها رسولا) أى أصلها وعظيمتها كأمهات الرساتيق والأقاليم ، حكاه الزمخشرى وابن الجوزى وغيرهما وليس ببعيد

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين فى الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم كما قال تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) وقال (وما عند الله خير للأبرار) وقال (وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع) وقال تعالى (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والله ما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا كما يغمس أحدكم اصبعه فى اليم فلينظر ماذا يرجع إليه » وقوله تعالى (أفلا تعقلون ؟) أى أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة . وقوله تعالى (أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين) يقول تعالى : أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب الذى هو صائر إليه لا محالة كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعده ووعيده فهو ممتع فى الحياة الدنيا أياما قلائل (ثم هو يوم القيامة من المحضرين) قال مجاهد وقتادة من المعذبين ثم قد قيل إنها نزلت فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى أبى جهل . وقيل فى حمزة وعلى وأبى جهل وكلاهما عن مجاهد والظاهر أنها عامة وهذا كقوله تعالى إخباراً عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه وهو فى الدرجات وذاك فى الدركات فقال (ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين) وقال تعالى (ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون)

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ * فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول (أين شركائى الذين كنتم تزعمون) يعنى أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدار الدنيا من الأصنام والأنداد هل ينصرونكم أو ينتصرون ، وهذا على سبيل التقريع والتهديد كما قال تعالى(ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون).وقوله(قال الذين حق عليهم القول) يعنى الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر (ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون) فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم ثم تبرءوا من عبادتهم كما قال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً) وقال تعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقال الخليل عليه السلام لقومه (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا) الآية وقال الله تعالى (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأو العذاب وتقطعت بهم- الأسباب -إلى قوله- وما هم بخارجين من النار) ولهذا قال (وقيل ادعوا شركاءكم) أى ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون منهم فى الدار الدنيا (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب) أى وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة . وقوله (لو أنهم كانوا يهتدون) أى فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين فى الدار الدنيا وهذا كقوله تعالى (ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا * ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا) . وقوله (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) النداء الأول عن سؤال التوحيد وهذا فيه إثبات النبوات ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم وكيف كان حالكم معهم وهذا كما يسئل العبد فى قبره . من ربك ومن نبيك ومادينك ؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأما الكافر فيقول هاه هاه لا أدرى ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت لأن من كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ولهذا قال تعالى (فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون) قال مجاهد فعميت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب وقوله (فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً) أى فى الدنيا (فعسى أن يكون من المفلحين) أى يوم القيامة وعسى من الله موجبة فان هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار ، وأنه ليس له فى ذلك منازع ولا معقب قال تعالى (وربك يخلق مايشاء ويختار) أى ما يشاء فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ومرجعها إليه . وقوله (ما كان لهم الخيرة) نفى على أصح القولين كقوله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) وقد اختار ابن جرير أن (ما) ههنا بمعنى الذى تقديره : ويختار الذى لهم فيه خيرة، وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح ، والصحيح أنها نافية كما نقله ابن أبى حاتم عن ابن عباس وغيره أيضاً فان المقام فى بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار وأنه لا نظير له فى ذلك ولهذا قال (سبحان الله وتعالى عما يشركون) أى من الأصنام والأنداد التى لا تخلق ولا تختار شيئاً ثم قال تعالى (وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون)أى يعلم ما تكن الضمائر ، وما تنطوى عليه السرائر ، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) . وقوله

(وهو الله لا إله إلا هو) أى هو المنفرد بالإلهية فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار سواه (له الحمد فى الأولى والآخرة) أى فى جميع ما يفعله هو المحمود عليه بعدله وحكمته (وله الحكم) أى الذى لا معقب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته (وإليه ترجعون) أى جميعكم يوم القيامة فيجزى كل عامل بعمله من خير وشر ولا يخفى عليه منهم خافية فى سائر الأعمال

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى ممتنا على عباده بما سخرلهم من الليل والنهار اللذين لاقوام لهم بدونهما وبين أنه لوجعل الليل دائما عليهم سرمداً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ولسئمته النفوس وانحصرت منه ولهذا قال تعالى (من إله غير الله يأتيكم بضياء) أى تبصرون به وتستأنسون بسببه (أفلا تسمعون ؟) ثم أخبر تعالى أنه لوجعل النهار سرمدا أى دائما مستمرا إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ولتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال ولهذا قال تعالى (من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه) أى تستريحون من حركاتكم وأشغالكم (أفلا تبصرون ؟ * ومن رحمته) أى بكم (جعل لكم الليل والنهار) أى خلق هذا وهذا (لتسكنوا فيه) أى فى الليل (ولتبتغوا من فضله) أى فى النهار بالأسفار والترحال، والحركات والأشغال ، وهذا من باب اللف والنشر . وقوله (ولعلكم تشكرون) أى تشكرون الله بأنواع العبادات فى الليل والنهار ، ومن فاته شىء بالليل استدركه بالنهار أو بالنهار استدركه بالليل كما قال تعالى (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) والآيات فى هذا كثيرة .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

وهذا أيضا نداء ثان على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلها آخر يناديهم الرب تعالى على رءوس الاشهاد فيقول (أين شركائى الذين كنتم تزعمون) أى فى دار الدنيا . (ونزعنا من كل أمة شهيدا) قال مجاهد : يعنى رسولا (فقلنا هاتوا برهانكم) أى على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء (فعلموا أن الحق لله) أى لا إله غيره فلم ينطقوا ولا يحيروا جوابا (وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى ذهبوا فلم ينفعوهم .

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ * وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

قال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال (إن قارون كان من قوم موسى) قال كان ابن عمه ، وهكذا قال إبراهيم النخعى وعبد الله بن الحارث بن نوفل وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وغيرهم أنه كان ابن عم موسى عليه السلام . قال ابن جريج هو قارون بن يصهب بن قاهث وموسى بن عمران بن قاهث ، وزعم محمد بن إسحاق بن يسار أن قارون كان عم موسى بن عمران عليه السلام. قال ابن جريج وأكثر أهل العلم على أنه

كان ابن عمه والله أعلم وقال قتادة بن دعامة كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة ولكن عدو الله نافق كما نافق السامرى فأهلكه البغى لكثرة ماله: وقال شهر بن حوشب زاد فى ثيابه شبرا طولا ترفعا على قومه . وقوله (وآتيناه من الكنوز) أى الأموال (ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) أى ليثقل حملها الفئام من الناس لكثرتها . قال الأعمش عن خيثمة كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود كل مفتاح مثل الاصبع كل مفتاح على خزانة على حدته فإذا ركب حملت على ستين بغلا أغر محجلا وقيل غير ذلك والله أعلم . وقوله (إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين) أى وعظه فيما هو فيه صالحو قومه فقالوا على سبيل النصح والارشاد : لا تفرح بما أنت فيه يعنون لا تبطر بما أنت فيه من المال (إن الله لا يحب الفرحين) قال ابن عباس يعنى المرحين ، وقال مجاهد يعنى الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم ، وقوله (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) أى استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة فى طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات التى يحصل لك بها الثواب فى الدنيا والآخرة (ولا تنس نصيبك من الدنيا) أى مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح فان لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا ولزورك عليك حقا فآت كل ذى حق حقه (وأحسن كما أحسن الله إليك) أى أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك (ولا تبغ الفساد فى الأرض) أى لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به فى الأرض وتسىء إلى خلق الله (إن الله لا يحب المفسدين) .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن جواب قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير (قال إنما أوتيته على علم عندى) أى أنا لا أفتقر إلى ما تقولون فان الله تعالى إنما أعطانى هذا المال لعلمه بأنى أستحقه ولمحبته لى فتقديره إنما أعطيته لعلم الله فىّ أنى أهل له وهذا كقوله تعالى (وإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم) أى على علم من الله بى وكقوله تعالى (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى) أى هذا أستحقه . وقد روى عن بعضهم أنه أراد (إنما أوتيته على علم عندى) أى أنه كان يعانى علم الكيمياء وهذا القول ضعيف لأن علم الكيمياء فى نفسه علم باطل لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله عز وجل قال الله تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له) وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « يقول الله تعالى ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة » وهذا ورد فى المصورين الذين يشبهون بخلق الله فى مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل فكيف بمن يدعى أنه يحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى هذا زور ومحال ، وجهل وضلال ، وإنما يقدرون على الصبغ فى الصور الظاهرة وهى كذب وزغل وتمويه وترويج أنه صحيح فى نفس الأمر وليس كذلك قطعا لا محالة ولم يثبت بطريق شرعى أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التى يتعاطاها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفاكون فأما ما يجريه الله سبحانه من خرق العوائد على يدى بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهبا أو فضة أو نحو ذلك فهذا أمر لا ينكره مسلم ولا يرده مؤمن ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسموات واختياره وفعله كما روى عن حيوة بن شريح المصرى رحمه الله تعالى أنه سأله سائل فلم يكن عنده ما يعطيه ورأى ضرورته فأخذ حصاة من الأرض فأجالها فى كفه ثم ألقاها إلى ذلك السائل فإذا هى ذهب أحمر . والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جدا يطول ذكرها ، وقال بعضهم إن قارون كان يعرف الاسم الأعظم فدعا الله به فتمول بسببه . والصحيح المعنى الأول ولهذا قال الله تعالى رادا عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا) أى قد كان من هو أكثر منه مالا وما كان

ذلك عن محبة مناله وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ولهذا قال (ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون)أى لكثرة ذنوبهم . قال قتادة (على علم عندى) على خير عندى ، وقال السدى على علم أنى أهل لذلك . وقد أجاد فى تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فانه قال فى قوله (قال إنما أوتيته على علم عندى) قال لولا رضا الله عنى ومعرفته بفضلى ما أعطانى هذا المال وقرأ (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا) الآية وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه لولا أن يستحق ذلك لما أعطى

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن قارون أنه خرج ذات يوم على قومه فى زينة عظيمة وتجمل باهر من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها وتمنوا أن لو كان لهم مثل الذى أعطى (قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذوحظ عظيم) أى ذوحظ وافر من الدنيا ، فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوالهم (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا) أى جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين فى الدار الآخرة خير مما ترون . كما فى الحديث الصحيح « يقول الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرءوا إن شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) » وقوله (ولا يلقاها إلا الصابرون)قال السدى ولا يلقى الجنة إلا الصابرون كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم ، قال ابن جرير ولا يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا الراغبون فى الدار الآخرة وكأنه جعل ذلك مقطوعا من كلام أولئك وجعله من كلام الله عز وجل واخباره بذلك

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾

لما ذكر تعالى اختيال قارون فى زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض كما ثبت فى الصحيح عند البخارى من حديث الزهرى عن سالم أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ قال « بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة » ثم رواه من حديث جرير بن زيد عن سالم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحوه . وقال الإمام أحمد حدثنا النضر بن إسماعيل أبو المغيرة القاص حدثنا الأعمش عن عطية عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « بينما رجل ممن كان قبلكم خرج فى بردين أخضرين يختال فيهما أمر الله الأرض فأخذته فانه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة » تفرد به أحمد وإسناده حسن ، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا أبو خيثمة حدثنا يعلى بن منصور أخبرنى محمد بن مسلم سمعت زياد النميرى يحدث عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « بينما رجل ممن كان قبلكم خرج فى بردين فاختال فيهما فأمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر فى كتاب العجائب الغريبة بسنده عن نوفل بن مساحق قال رأيت شابا فى مسجد نجران فجعلت أنظر إليه وأتعجب من طوله وتمامه وجماله فقال مالك تنظر إلى فقلت أعجب من جمالك وكمالك . فقال إن الله ليعجب منى قال فما زال ينقص وينقص حتى صار بطول الشبر فأخذه بعض قرابته فى كمه وذهب به

وقد ذكر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبي الله عليه السلام واختلف في سببه فعن ابن عباس والسدى أن قارون أعطى امرأة بغيا مالا على أن تبهت موسى بحضرة الملأ من بني إسرائيل وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله تعالى فتقول يا موسى إنك فعلت بي كذا وكذا فلما قالت ذلك في الملأ لموسى عليه السلام أرعد من الفرق وأقبل عليها بعد ما صلى ركعتين ثم قال ، أنشدك بالله الذي فرق البحر وأنجاكم من فرعون وفعل كذا وكذا لما أخبرتني بالذي حملك على ما قلت ؟ فقالت أما إذا نشدتني فإن قارون أعطاني كذا وكذا على أن أقول ذلك لك وأنا أستغفر الله وأتوب إليه فعند ذلك خر موسى لله عز وجل ساجدا وسأل الله في قارون فأوحى الله إليه أن قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك . وقيل إن قارون لما خرج على قومه في زينته تلك وهو راكب على البغال الشهب وعليه وعلى خدمه ثياب الأرجوان المصبغة ثم في محفله ذلك على مجلس نبي الله موسى عليه السلام وهو يذكرهم بأيام الله فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوههم نحوه ينظرون إلى ما هو فيه فدعاه موسى عليه السلام وقال : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال يا موسى أما لئن كنت فضلت على بالنبوة فلقد فضلت عليك بالدنيا ولئن شئت لنخرجن فلتدعون على وأدعو عليك ، فخرج موسى وخرج قارون في قومه فقال موسى عليه السلام تدعو أو أدعو أنا ؟ فقال بل أدعو أنا فدعا قارون فلم يجب له ثم قال موسى أدعو ؟ قال نعم فقال موسى اللهم مر الأرض أن تطيعني اليوم فأوحى الله إليه أني قد فعلت فقال موسى يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى أقدامهم . ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم ثم إلى مناكبهم ثم قال أقبلي بكنوزهم وأموالهم قال : فأقبلت بها حتى نظروا إليها ثم أشار موسى بيده ثم قال اذهبوا بني لاوى فاستوت بهم الأرض ، وعن ابن عباس قال : خسف بهم إلى الأرض السابعة وقال قتادة ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة ، وقد ذكر ههنا إسرائيليات غريبة أضربنا عنها صفحاً . وقوله تعالى (فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) أي ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه ، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله ولا كان هو في نفسه منتصراً لنفسه فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره

وقوله تعالى (وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس) أي الذين لما رأوه في زينته (قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم) فلما خسف به أصبحوا يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر أي ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه فإن الله يعطي ويمنع ويضيق ويوسع ويخفض ويرفع ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم ، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب » (لولا أن من الله علينا لخسف بنا) أي لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به لأنا وددنا أن نكون مثله (ويكأنه لا يفلح الكافرون) يعنون أنه كان كافراً ولا يفلح الكافرون عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة وقد اختلف النحاة في معنى قوله ههنا ويكأن فقال بعضهم معناه ويلك اعلم أن ولكن خففت فقيل ويك ودل فتح أن على حذف اعلم ، وهذا القول ضعفه ابن جرير ، والظاهر أنه قوي ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة ويكان ، والكتابة أمر وضعي اصطلاحي والمرجع إلى اللفظ العربي والله أعلم ، وقيل معناها ويكأن أي ألم تر أن قاله قتادة . وقيل معناها وي كأن ففصلها وجعل حرف وي للتعجب أو للتنبيه وكأن بمعنى أظن وأحتسب . قال ابن جرير وأقوى الأقوال في هذا قول قتادة إنها بمعنى ألم تر أن واستشهد بقول الشاعر :

سالتاني الطلاق إذ رأتاني ... قل مالي وقد جئتماني بنكر

ويكأن من يكن له نشب يحـ ... ـبب ومن يفتقر يعش عيش ضر

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذى لا يحول ولا يزول جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علواً فى الأرض أى ترفعاً على خلق الله وتعاظما عليهم وتجبراً بهم ولا فساداً فيهم كما قال عكرمة العلو: التجبر . وقال سعيد بن جبير العلو البغى وقال سفيان بن سعيد الثورى عن منصور عن مسلم البطين العلو فى الأرض التكبر بغير حق والفساد أخذ المال بغير حق ، وقال ابن جريج (لا يريدون علوا فى الأرض) تعظما وتجبراً (ولا فساداً) عملا بالمعاصى . وقال ابن جرير حدثنا وكيع حدثنا أبى عن أشعث السمان عن أبى سلام الأعرج عن على قال : إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل فى قوله تعالى (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره ، فان ذلك مذموم كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنه أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد » وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل فهذا لا بأس به فقد ثبت أن رجلا قال : يارسول الله إنى أحب أن يكون ردائى حسنا ونعلى حسنة أفمن الكبر ذلك ؟ فقال « لا ، إن الله جميل يحب الجمال » . وقال تعالى (من جاء بالحسنة) أى يوم القيامة (فله خير منها) أى ثواب الله خير من حسنة العبد فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة وهذا مقام الفضل ، ثم قال (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) كما قال فى الآية الأخرى (ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار ، هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) وهذا مقام الفضل والعدل

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ * وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد وهو يوم القيامة فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة ولهذا قال تعالى (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) أى افترض عليك أداءه إلى الناس (لرادك إلى معاد) أى إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك كما قال تعالى (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) وقال تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم) وقال (وجىء بالنبيين والشهداء)

وقال السدى عن أبى صالح عن ابن عباس (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) يقول لرادك إلى الجنة ثم سائلك عن القرآن . قال السدى وقال أبو سعيد مثلها ، وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما (لرادك إلى معاد) قال إلى يوم القيامة ورواه مالك عن الزهرى وقال الثورى عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (لرادك إلى معاد) إلى الموت ولهذا طرق عن ابن عباس رضى الله عنهما وفى بعضها لرادك إلى معدنك من الجنة وقال مجاهد يحييك يوم القيامة وكذا روى عن عكرمة وعطاء وسعيد بن جبير وأبى قزعة وأبى مالك وأبى صالح وقال الحسن البصرى إى والله إن له لمعاداً فيبعثه الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة . وقد روى عن ابن عباس غير ذلك كما قال البخارى فى التفسير من صحيحه حدثنا محمد بن مقاتل أنبأنا يعلى حدثنا سفيان العصفرى عن عكرمة عن ابن عباس (لرادك إلى معاد) قال إلى مكة وهكذا رواه النسائى فى تفسير سننه وابن جرير من حديث يعلى وهو ابن عبيد الطنافسى به وهكذا رواه العوفى عن ابن عباس (لرادك إلى معاد) أى لرادك إلى مكة كما أخرجك منها وقال محمد ابن إسحق عن مجاهد فى قوله (لرادك إلى معاد) إلى مولدك بمكة . وقال ابن أبى حاتم وقد روى عن ابن عباس ويحيى ابن الجزار وسعيد بن جبير وعطية والضحاك نحو ذلك . وحدثنا أبى حدثنا بن أبى عمر قال : قال سفيان فسمعناه من

مقاتل منذ سبعين سنة عن الضحاك قال لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة فأنزل الله عليه (إن الذى فرض عليك الكتاب لرادك إلى معاد) إلى مكة وهذا من كلام الضحاك يقتضى أن هذه الآية مدنية وإن كان مجموع السورة مكيا والله أعلم . وقد قال عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة فى قوله تعالى (لرادك إلى معاد) قال هذه مما كان ابن عباس يكتمها . وقد روى ابن أبى حاتم بسنده عن نعيم القارى أنه قال فى قوله (لرادك إلى معاد) قال إلى بيت المقدس وهذا والله أعلم يرجع إلى قول من فسر ذلك بيوم القيامة لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والمنشر والله الموفق للصواب ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة وهو الفتح الذى هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبى صلى الله عليه وسلم كما فسر ابن عباس سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) إلى آخر السورة أنه أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى إليه ، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب ووافقه عمر على ذلك وقال : لا أعلم منها غير الذى تعلم ، ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله (لرادك إلى معاد) بالموت وتارة بيوم القيامة الذى هو بعد الموت وتارة بالجنة التى هى جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وابلاغها إلى الثقلين الإنس والجن ، ولأنه أكمل خلق الله وأفصح خلق الله وأشرف خلق الله على الإطلاق وقوله تعالى (قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين) أى قل لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم قل ربى أعلم بالمهتدى منكم ومنى وستعلمون لمن تكون له عاقبة الدار ولمن تكون العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة . ثم قال تعالى مذكرا لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب) أى أما كنت تظن قبل انزال الوحى إليك أن الوحى ينزل عليك (ولكن رحمة من ربك) أى إنما أنزل الوحى عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة (فلا تكونن ظهيرا) أى معينا (للكافرين) ولكن فارقهم وانابذهم وخالفهم (ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك) أى لا تتأثر لمخالفتهم لك وصدهم الناس عن طريقك لا تلوى على ذلك ولا تباله فان الله معل كلمتك ومؤيد دينك ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان ولهذا قال (وادع إلى ربك) أى إلى عبادة ربك وحده لا شريك له (ولا تكونن من المشركين) وقوله (ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو) أى لا تليق العبادة إلا له ولا تنبغى الإلهية إلا لعظمته . وقوله (كل شىء هالك إلا وجهه) إخبار بأنه الدائم الباقى الحى القيوم الذى تموت الخلائق ولا يموت كما قال تعالى (كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) فعبر بالوجه عن الذات وهكذا قوله ههنا (كل شىء هالك إلا وجهه) أى إلا إياه وقد ثبت فى الصحيح من طريق أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد * ألا كل شىء ما خلا الله باطل * » وقال مجاهد والثورى فى قوله (كل شىء هالك إلا وجهه) أى إلا ما أريد به وجهه ، وحكاه البخارى فى صحيحه كالمقرر له ، قال ابن جرير : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر

أستغفر الله ذنبا لست محصيه * رب العباد إليه الوجه والعمل

وهذا القول لا ينافى القول الأول فان هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة ، والقول الأول مقتضاه ان كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس فانه الأول الآخر الذى هو قبل كل شىء وبعد كل شىء . قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا فى كتاب التفكر والاعتبار حدثنا أحمد بن محمد بن أبى بكر حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا عمر بن سليم الباهلى حدثنا أبو الوليد قال : كان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتى الخربة فيقف على بابها فينادى بصوت حزين : فيقول أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول (كل شىء هالك إلا وجهه) وقوله (له الحكم) أى الملك والتصرف ولا معقب لحكمه (وإليه ترجعون) أى يوم معادكم فيجزيكم بأعمالكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر . آخر تفسير سورة القصص ولله الحمد والمنة